

بل هي أفكار قديمة لديه أسامة عرابي

تحت عنوان هذا الدور المريب للجامعة الأمريكية، نشرت جريدة العربى فى عددها الماضى 5/13 مقالا مهما لأستاذ التاريخ المرموق د. رعوف عباس، أزاح فيه النقاب عن طبيعة الدور الذى نهضت به الجامعة الأمريكية بالقاهرة، منذ مبتدأ أمرها، وماهية مشروع دراسات الشرق الأوسط الذى تولى شأنه جويل بنين، عبر نشرته الإلكترونية التى توخت فى عددها الأول التعبير عن (وجهة النظر الإسرائيلية المحضنة) وفى عددها الثانى (الترويج لفكرة عدم وجود ما يسمى بالعالم العربى والدول العربية).

ثم عرج سيادته إلى الندوة التى عقدتها الجامعة الأمريكية يوم 24 من أبريل وغطت أعمالها صحيفة الدبلى ستار المصرية التى تصدر فى مصر بالإنجليزية، وكانت باسم (الاحتجاجات السياسية والاجتماعية فى مصر .. عرض لجهود ثلاثين عاما) غير أن عنوانها "المقاومة من منظور عربى"، حرص من خلالها على الترويج للتوجه الجديد للجامعة الأمريكية، ولكن فى خدمة المشروع الصهيونى بوضوح تام هذه المرة على حد تعبيره.

وهنا أود أن أشير فى هذا السياق إلى أن جويل بنين أستاذ التاريخ بجامعة ستانفورد بولاية كاليفورنيا الأمريكية، والذى يجيد العربية قراءة وكتابة، سبق له وأن طرح الأفكار سألقة الذكر فى كتابة الذى حمل اسم (العلم الأحمر .. هل كان يرفرف هناك ؟ السياسات الماركسية والنزاع العربى الإسرائيلى) الذى ترجمه الأستاذ كمال السيد، ونشرته دار "الثقافة الجديدة" عام 1996.. وفيه يركز الاهتمام على ما دعاه بـ محاولة لإعادة تشكيل مفهوم تاريخ النزاع الفلس طينى العربى - الإسرائيلى من خلال عدسات تاريخ السياسات الماركسية والغرض من القيام بهذا هو دراسة العملية التى تحققت بها هيمنة السياسات القومية وتأكيد الوجود التاريخى لسياسات بديلة مع تحليل أسباب فشلها ص13. . وتعتمد طول الوقت تجنب استخدام مفهوم "الصراع العربى - الصهيونى"، كما يمثل لنا فى إسرائيل.. نافيا وجوده بذلك من الأساس.. وكأنه مجرد نزاع أو حاجز نفسى يزول بالتطبيع الرسمى ومشروع التسوية المفروض عنوة واقتدارا على المنطقة العربية من قبل أعدائنا التاريخيين .. وراح يخطط الأوراق بعضها ببعض إصابة لأهدافه المرتجاة .. فرأى أن النظام الناصرى لم يسع إلى تحقيق فهم أكثر جدية لمصادر قوة إسرائيل

وما الذى قد تعنيه هذه القوة بالنسبة لمصر والعالم العربى بأكثر مما فعل النظام القديم، وهكذا استمر سوء فهم الشعب المصرى لطبيعة إسرائيل والصهيونية..

ثم يؤكد بعدها (أن العداء للسامية من الطراز الأوروبى لم يكن جد بارزا فى مصر قبل الحرب العالمية الثانية، ولم تصبح التفرقة الصريحة ضد غالبية اليهود المصريين -الذين لم يكونوا شيوعيين- والصهيونيين، واضطهادهم شائعة إلا بعد مهاجمة إسرائيل لمصر فى 1956) ص24 وهذه مغالطات لا تتطلى على أحد لأن موقف الشعب المصرى من إسرائيل لم يبدأ من عام 1956.. بل بدأ انطلاقا من هزيمة فلسطين وإعلان دولة الجيش العبرى عام 1948، بما مثله من انتقاص للهوية القومية العربية وإذلال سياسى لشعبنا وإخضاعها لقهر واستغلال دائمين لذا غدا من المثير للضحك ما حاول جويل بنين تمريره عبر قوله: خلال لحظتين فى تاريخ إسرائيل لم يحظ فيهما التوسع الإقليمى بتأييد كبير ولم يكن عاملا أساسيا فى منظور قيادتها السياسية خلال مطلع الخمسينيات، وبعد الانسحاب الإسرائيلى من سيناء وغزة فى 1957، يمكن تخيل أن نظاما مصريا أكثر ثباتا فى سعيه للسلام وأقل التزاما بالقومية العربية، ربما كان قادرا على التوصل لتسوية مع إسرائيل مماثلة لتلك التى تحققت فى 1979، ص25.. قافزا بالطبع على مجمل الشروط الموضوعية التى اتسم بها المشروع الصهيونى منذ نشوئه.. أى قيامه على أساس التناقض الرئيسى بينه وبين المصالح التاريخية للشعوب العربية، الأمر الذى جعل كل تراخ فى اليقظة العدوانية لدى إسرائيل، وكل نقص فى وحدتها الداخلية، وبالتالي فى طاقتها الهجومية الإجمالية، يشكل خطرا يضر لها الموت.. وبذلك تحدد فهم إسرائيل واستقر للسلام المدعى بوصفه استسلاما كاملا وقبولاً مطلقاً من لدنا لاملأءاتها.. من هنا جاء حرص بنين على استخدام مفهوم "خطاب سياسى وطنى مهيم فى مصر وإسرائيل على حد سواء، انكفاء على التحليل الذى صكه بندكت أندرسون للأمم بوصفها مجتمعات متصورة".

ينبغى بناؤها وإعادة إنتاجها عن طريق كل من العلاقات الاجتماعية والمؤسسات التى تعمل بداخلها.. وبذلك تدعم الحدود الوطنية والممارسات الاستطراذية التى تفسر الظواهر الثقافية والسياسية الماضية والراهنة فى إطار وطنى، ص27 وبالتالي تتخلص من شر مستطير لدى "بنين" مفاده (انتصار القومية التى لا تعرف الحل الوسط) ص32، لكن بما أننا لم نعد قادرين على تعلم دروس تاريخ النزاع الفلسطينى / العربى -الإسرائيلى، فأن دراسة ما حدث لأولئك الذين ناضلوا للحفاظ على مبادئ تقرير المصير، والاعتراف المتبادل والتعايش السلمى توفر جزءا آخر، إذ تظل هذه القيم مهمة للنزاع حاليا، والواقع أنها تحظى باعتراف مطرد باعتبارها مكونات أساسية فى حل النزاع، ص31، ثم يزيد الأمر وضوحا فى نهاية كتابه هذا فيقول: (أن الشعب الفلسطينى لا يدعى لنفسه الآن حقا يزيد عما يدعيه الشعب الإسرائيلى لنفسه، دولة ذات سيادة تعيش فى سلام مع جيرانها، وهذا التأكيد على المساواة هو

نذب بليغ لكل من الاتجاه الكولونيالى للمشروع الصهيونى والسلاح الأول للشعب الفلسطينى وهو المقاومة) ص231، 232.

وعلى هذا النحو تسمى دعوة بنين إلى تشديد النبر على (فشل الكفاح المسلح فى فلسطين) بعد أن (أنتهى عصر التحرر الوطنى من الوجود) على حد زعمه، محاولة مفضوحة لوأد الانتفاضة الفلسطينية ونهج المقاومة والحركات الشعبية المنظمة، بعد أن تدنى بفضل الانتفاضة الاستثمار فى الإسكان وفى الشركات الناشئة وفى الآلات والمعدات، فضلا عن الأضرار التى لحقت بقطاع السياحة فتدنت أسعاره، وبلغت خسارة الناتج المحلى الإجمالى المباشرة معدلات غير مسبوقة، وفق تقديرات دائرة الأبحاث فى بنك إسرائيل المركزى، كما توقفت عمليات تهجير يهود العالم إلى أرض فلسطين المحتلة التى تحولت إلى قوة طاردة لهم ألم تجبر العمليات الإستشهادية إسرائيل على قبول تنفيذ القرار 425 فى لبنان والإسراع بالخروج من المستنقع اللبناى، واليوم تضى العمليات الاستشهادية سماء العراق، كما أضاءت سماء فلسطين، وستحررها وأن رغمت أنوف.

لذلك كان من الطبيعى أن تناط بجويل بنين مهمة الترويج لهذه الأفكار المشبوهة عبر الجامعة الأمريكية التى أطلقت اسم الشيخ كمال أدهم على أحد أقسامها، واختارت وليم رايس الذى دعى بعد ذلك باسم عبد الله سليفر عميدا له، وعلاقة كليهما بالأجهزة الأمريكية وثيقة الصلة بدوائر صنع القرار جد معروفة.. وأن تصدر كتابا للسيدة سينثيا نلسون عميدة كلية الآداب السابقة بعنوان "امرأة مختلفة": درية شفيق، أنجزته من خلال الإجازة المدفوعة الأجر التى حصلت عليها من الجامعة الأمريكية فى القاهرة ومن معهد "درية شفيق" ب الخطر الكبير من فلسفة عبد الناصر البيروقراطية المركزية ومن تجربته الاشتراكية ومن الشيوعية باعتبارها نقمة على ما تؤمن به من قيمة أساسية. الا وهى الحرية الفردية ثم تذكر فى تضاعيف حواشى الكتاب، نقلا عن هيرمان أيلتزر السفير الأمريكى الأسبق فى مصر والمملكة السعودية، فى حديث شخصى معه أن الصحفية الأمريكية دوروثى تومسون رئيسة ما أطلق عليه (الأصدقاء الأمريكيون للشرق الأوسط) فى الفترة الممتدة بين 1951 - 1958 أنها قد عاونت جمال عبد الناصر فى صياغة فلسفة الثورة وهو كلام يفنقر إلى دلائل تسنده، ومنطق يسوغه.. على الرغم من اعتراف المؤلفة بأن إضراب درية شفيق عن الطعام فى السفارة الهندية حتى تجاب إلى مطالبها السياسية قد جاء متفقا مع طبيعتها وميلها للتصرفات المسرحية.

أن الهدف المنشود من وراء هذه الأبحاث والكتب والأفكار التى تزوج لها الجامعة الأمريكية من العينة التى سلفت الإشارة إليها، هو محاولة (إنكار الماضى الملتبس والخلافى) والتأكيد على الطابع الحصرى لسعى الليبرالية الجديدة لتعليب المفاهيم وتصديرها، والتعامل مع الآخر بوصفه موضوعا لا ذاتا مستقلة.. وهو ما يتفق مع الهدف الذى رجاه البروتستانت من تأسيسها، فى إطار البحث عن قنوات تتيح

بث الأفكار الليبرالية الانجلو سكسونية فى الشرق الأوسط، بيد أن هذا كله لا يفضى بحال إلى ضرب من خلط متسرع لجرف المواقف وطمسها بين الجامعة كمؤسسة تمثل لحظة تشكلت فى سياق نمو العلاقات السياسية والاقتصادية للمجتمع الأمريكى فى مرحلة تاريخية محددة، هى المرحلة الرأسمالية، وبين استقلالية بعض أساتذتها وطلابها الساعين إلى غرس أشكال جديدة من الفهم والممارسة تتجاوز الأفق الليبرالى الذى قامت عليه هذه الجامعة كاحتواء أخلاقى لها. ومن ثم لا يوجد عاقل بمقدوره القول بتماهى وعى كل الأفراد والمؤسسة ذلك لا شك محض وهم لا ينشأ إلا فى مخيلة النظام التوتاليتارى الذى لا يعبأ بأفعل وإرادة بشريين، ويخاله قادرا على الدمج ما بين (الشرعية البورجوازية) والعدالة.

لكن هذا أيضا لا ينهض دليلا على كرم حانمى للجامعة الأمريكية فالتعليم مثله فى ذلك مثل غيره لا يسبح فى المطلق، بل تحركه أيديولوجيا، وتضبط حركته أدوات لإنتاجه، ونظم تنتهجها رؤيا معينة.